خواطر عابر سبيل:

كلّ «شفوت» وأنتم بخير

حبيب عبدالرب سروري

قرأتُ عبارة «كل شفوت وأنتم بخير» في نهاية رسالة إلكترونية كتبَتها القاصة أروى عبده عثمان، ردّا على رسالتي، بعد انتهائها كما يبدو من إعداد الفطور العائلي قبيل مغرب أحد أواخر رمضان.

أثناء قراءتي تلك العبارة، إجتاحتني مشاعر وذكريات غريبة، عميقة، متداخلة، خلقت جوّا من «الربشة» الذهنية إذا صح التعبير. لعلي أحاول هنا نقل محضر تلك الربشة، مستفيدا من تجربتي القديمة في كتابة محاضر وتقارير اجتماعات المنظمات القاعدية خلال جزءٍ كبير من حياتي الطلابية.

كانت النقطة الاولى لذلك «الاجتماع» هي تفاعلات «المنظومات الإدراكية» التي مسّتها تلك العبارة: توهّجتْ في ذهني في آنٍ واحد أربعةُ منظومات إدراكية على الأقل. إتّصلتْ وتواصلتْ واشتبكتْ وتكاملتْ في نفس الآن. أربعةُ منظومات أعتبرُها أرهفَ بقع كُرتَي مُخّي حساسيةً وأكثرَها ضجيجا:

(١) منظومة «ذاكرة الاحداث» التي شفطت من مخزن ذكريات المنظومة، وفي كُسرٍ ضئيل من الثانية، طقوسَ استقبالات العيد في نهايات رمضان طفولتي، وأصداء «كل عام وانتم بخير» القادمة من زمن سحيق.

(٢) منظومة «الذواقة وفنون المآكل» التي بسطت أمامي في نفس ذلك الكسر من الثانية، وباتصال مع المنظومة السابقة، ألذّ شفوتات حياتي، تلك التي كانت تعدّها أمي في المنزل، أو التي تناولتُها في السفوح الجبلية في الرحلات القديمة والحديثة، أو في منازل أعز الاصدقاء...

للشفوتِ في ذاكرة شهيّتي طعمٌ همجيٌّ لذيذ! ثمّة حبل سرّي يربط الشفوت في مقاييسي الذوقية والجمالية بعذرية البراري. للشفوتِ ديالكتيكٌ جليّ دافق: له برودة تلطف الصدر، ولهيب يشعل الشرايين. له حرارةَ وبرودة تتعانقان معا بشكل منسجم لذيذ. لا أدري لماذا أظنّ أحيانا لو أن هناك وجبة يمنية واحدة لم تأت جذورها من الهند أو من باكستان، من الأتراك أو من ديار الجيران... لكانت هي الشفوت!

أجهلُ كلية ذاكرة الشفوت. أجهل تماما تفاصيل علاقة أجدادنا بالشفوت. أجهل مثلا إن كانت الملكة أروى تعشق الشفوت هي الأخرى، وإن كان كهنة معبد المقا السبأيي يتناولون الشفوت قبل أو بعد طقوسهم الدينية. أجهل إن كانت كلمة الشفوت آتية من لغة سبأية قديمة، أو من لغة أجداد أجدادنا الذين قضوا عشرات

آلاف السنين في صراع مكشوف مع الوحوش والضواري في العراء والجبال الوعرة، أو من لغة ما قبل اللغة، لغة همهماتهم ونبراتهم البدائية... قبل أن يخترعوا الآلة، قبل أن تتواصل المنظومات الإدراكية المختلفة في أدمغتهم لتتحوّل إلى أدمغة صانعي آخر حضاراتنا، أولئك الذين بنوا سد مأرب، ونحتوا الجبال وكتبوا النقوش والمخطوطات العديدة...

أجهل كل ذلك، لكني أظن لسبب غامضٍ غريب أن اسم الشفوت يضرب في عمق تاريخ ثقافتنا المأدبية! فلكم تتفق نبراته وألوان حروفه مع مورفولوچيا الوجبة، مع «شفت» أقراص «اللحوح» (أي تفرقّها في سائل «الثريب»)، و«اشتفافها» له، (أي تشرّبها وامتلائها به)، ومع إيقاع أصداءٍ تتسرّب مما قبل القِدم، للهجاتٍ عتيقة لم يتبقّ منها اليوم غير ظلالٍ صوتية ترقص في ملكوت لاوعينَا الدفين... غفرانك ربّي! لعلّي أكون بعيدا جدا عن العقلانية والصواب عندما أصرّ أنه لا يمكنني أن أتصور أن تحمل هذه الوجبة، أو أنها حملت يوما ما، إسما آخر!

(٣) منظومة «الأعمال الأدبية» التي احتفلت بشقلبة الكلمات، بمباغتة القارئ بالتورية ومفاجآت البلاغة السعيدة، بانقلاب كلمة «الشفوت» على كلمة «العام» واستيلائها على موقع الاولى في رأس الجملة وما أدّى إليه ذلك من اغتصابٍ ذكي لتوقعات القارئ الحدسية...

فجأة، في وسط ذلك الكسر البسيط من الثانية التي لم تنته بعد، وفي ركنٍ دافئ من الخلايا الدماغية الخاصة بمخزن ذكريات هذه المنظومة، إشرأبّ الانموذج المجرّد للاسلوب الأدبي لأروى عبده عثمان: شبكةٌ من مبادئ وقواعد إبداعية تفرزُ قوالب وأشكال وألوان أدبية طازجة صادقة متميّزة قويّة، تنتزعُ موادها الخامّة من أحشاء الواقع الاجتماعي اليمني والثقافة الشعبية، تغتصبُ توقعاتنا الحدسيّة بنفس الرقّة، تحرّرُ فينا نفس النمط السعيد من المشاعر النقدية الساخرة... ذلك الاسلوب الذي يستطيع وحده، في كل لحظة وبكل بساطة، أن يخلق كثيرا من التركيبات اللغوية الطرية العذبة، بحساسية فنية نحسدها على دقّتها وبمواهب متفجّرة نحسدها على تدفّقها.

بعد ذلك، في بداية الجزء الأخير من ذلك الكسرالكثيف من الثانية، عادت إليّ، مما قرأتُه سابقا لتلك القاصّة، بعض عناوين وعبارات محدّدة تطنّ اتوماتيكيا في ذاكرتي عندما يرنّ إسم تلك الكاتبة. ثم اندرجتْ بعدها هذه العبارة الجديدة في «خانة» ذاكرة أحد فصائل «انتولوچيا» ذلك الاسلوب... لعلّ مجرى هذه الأحداث يشبه كثيرا ما يدور في الذهن عندما يدقُّ بابَ تأمُّله فجأة إسمُ فنّانٍ غنائيٍّ على سبيل المثال (لأقُلْ صباح فخري من باب التوضيح التَبسيطي السريع): يضيئُ في الذاكرة في لمحة برق نمطُ فنّه الغنائي، نغمات صوته، ومميزات أدائه... ترافق ذلك عناوين بارزة أثيرة ك«قلْ للمليحةِ ذي الخمار الأسودِ»...

(٤) منظومة «الأشياء المرئية» التي ارتجفت بهدوء وهي ترى كلمة «الشفوت» ترفعُ رأسها «مُصلِّبة» في نافذة «آوت لوك إكسبرس» (نظام قراءة للرسائل الالكترونية)، قاطعةً ستة آلاف كيلومتر، آتيةً من «صنعاء بلاد الشفوت» (إذا جاز لي أن أحرّف عنوان قصّة نالت بها الكاتبة المركز الأول لجائزة الشارقة للإبداع العربي)، حاملةً إليّ أصداء حشرجات عاصمةٍ تتخبّط جائعة قبيل موعد الافطار وسط بحيرة شفوت بحجم اليمن، مقتحمةً هدوءً وتناسقَ هذه الحديقة المنزلية التي لا يفصلني عنها غير بابٍ زجاجي كبير مجاورٍ لشاشة الكمبيوتر التي أقرأ عليها تلك الرسالة الالكترونية.

أجهل تماما جغرافيا الأحاسيس، ولا أستطيع، أكثر مما نقلته في هذا المحضر المتواضع، تحديدَ تضاريس خارطة الربشة الجميلة التي اعترتني أثناء تفاعلات تلك المنظومات الإدراكية بكل منظوماتها التحتيّة وخلفياتها البيولوچية ومساحاتها المخيّة المتداخلة. بانتظار أن أتعلّم ما يلزم من أبجديات علوم البيولوچيا الذهنية ونتائج أبحاثها الحديثة، بانتظار أن أتعلّم كيف يُستخرَجُ مقدارُ الربشة من صيغَةٍ رياضية تدخلُ في تكوينها كميّات نشاطات وتفاعلات المنظومات الادراكية، بانتظار ذلك، أقول بعبارات غير دقيقة، هلامية جدا، مغبّرة، كسولة: ... لعلّها خارطةُ ربشةٍ جميلة اختلطت فيها النشوة الأدبية، بالمفاجأة الممتعة، باندلاع الرغبة الحادّة بايفاءِ حاجاتي المحرومة من مصادر غذائية بدائية (كاللحوح والثريب والبسباس) نمّت الميول إليها جينات تركيبنا المتوارثة منذ آلاف السنين... تأجّجت كل تلك الأحاسيس في نارٍ هادئةٍ من الشجن اللذيذ، والذكريات القوية المتشابكة التي أذكاها اختلاف البيئة الجغرافية والسياق الثقافي، وتباين الديكور الذي حطّت فيه هذه العبارة الجديدة مع ديكور منطلقها... ليُنتِجَ كل ذلك، في نهاية المطاف، فسيفساء الخارطة التي أحاول رسمها بصعوبة، والتي نختزلها عادة بكلمة واحدة فتّاكة، فوسفورية صمّاء، شديدة التكوّر والكثافة: الشوق.

لكني أجزم أن كل عبارة تغتصب بذكاء توقعاتنا الحدسية وتوهّجُ وتشبكُ في نفس اللحظة حزمة كبيرة من المنظومات الإدراكية الحيوية التي تفرز استنتاجات غنيّة وتنشّط مشاعركثيفة... يكون لها مفعول قوي، دائم، سحري! لذلك، على غير عادتي، أخرجتُ الرسالة الالكترونية على الطابعة. أقفلتُ الكمبيوتر. ومكثتُ أعيد قراءة عبارة الأستاذة أروى عبده عثمان لوقت طويل...

فرنسا، ديسمبر ٢٠٠١

http://abdulrab.free.fr/texts.htm